الأديانُ والسَّلامُ

برثلماوس الأول(*)

أصحابَ الغبطةِ والسعادةِ والسيادةِ.

السادةُ المشاركون المحترمون.

أصدقائي الأعزَّاءُ.

شرُفتُ بدعوتي لإلقاءِ خطابٍ في هذا المؤتمرِ المعنيِّ بالسلام العالميِّ، الذي نظَّمه الأزهرُ الشريفُ ومجلسُ حكماء المسلمين.

ونتقدَّمُ بخالصِ تهانينا القلبيةِ لفضيلة الإمام الأكبر شيخِ الأزهرِ الشريفِ، الأستاذ الدكتور أحمد الطيب على شجاعته ورؤيته الحكيمةِ بتنظيمِ هذه المبادرةِ بالغةِ الأهميةِ؛ من أجلِ تعزيز السِّلمِ الذي تدعو إليه الأديانُ، فقد تعرَّضت الإنسانيةُ خلال العَقدَينِ الأخيرين لهجماتٍ إرهابيةٍ متتابعةٍ، خلَّفت وراءها آلافَ الضحايا من القتلى والجرحى، وأضحت تشكِّل أكبر مصدرِ تهديدٍ وخوفٍ في المجتمعاتِ المعاصرةِ.

ومنذ ذلك الحينِ، تكرَّر مرارًا اتهامُ الأديان علنًا، أو أُلقيت الشُّبَهُ حولها بأنها مصدرٌ للإرهاب والعنفِ؛ لقد أصبحت حياتُنا اليوميةُ مليئةً بالأخبارِ المرعبةِ عن ارتكابِ هجَماتٍ إرهابيةٍ باسم الدينِ.

وفي الآنِ نفسِه نلاحظ وجودَ رغبةٍ عالميةٍ وعزم على ضرورةِ تشجيعِ الحوارِ بدلًا من الصراع، ليس هذا صحيحًا عند الزعماء السياسيين والمنظَّمات العَلمانية

فحسبُ، بل هو الشغلُ الشاغلُ لرجال الدين والمؤسَّسات الدينية التي أَبدَت استعدادَها للدخول في حوارِ السلامِ على الصعيدِ المحليِّ والدوليِّ، من أجل ضمانِ التعايش والتعاون السِّلميَّين بين البشرِ.

ولكن لماذا لا زلنا نشهدُ زيادةَ وتيرةِ العنف دون إحراز تقدُّمٍ في صنع السلامِ بالرغم من إقامة العديدِ من المؤتمراتِ والإعلاناتِ والمبادراتِ من أجل السلامِ؟

كيف يُمكِنُ للمجتمع الدولي تبريرُ الأعمال الإرهابيةِ الأخيرةِ التي وقعت في مُدُنِ باريس وبروكسل وإسطنبول وسانت بطرسبرغ وستوكهولم؟

كيف يُمكِنُنا تفسير استمرار الحروبِ والصراعاتِ المسلحةِ وسفك الدماءِ في منطقةِ الشرقِ الأوسطِ؟

كيف يُمكِنُنا القبول بارتكاب هجماتٍ على كنيستين قبطيَّتَين في مدينتَي طنطا والإسكندرية منذ حَوالَي أسبوعينِ؟

اسمحوا لي أن أُعرِبَ مرةً أخرى عن خالصِ تعازينا وصَلَواتِ البطريركيةِ المسكونيةِ للمجتمع القبطيِّ وكافَّةِ أفراد الشعب المصريِّ.

من الضروريِّ لفهم ما يجري حولنا في عالمِ اليومِ أن نتأمَّل دورَ الدينِ في مساعدة البشريةِ.

من المفارقاتِ وخلافًا لتوقُّعات الحداثةِ بولادةِ «عصر عَلمانيةِ ما بعد الدِّينِ» أصبحت حِقبتُنا حقيقةً تمثِّل «عصر ما بعد العَلمانية» أو بالأحرى «مرحلة الانفجار الدِّينيِّ»؛ حيث ظهر الدين بُعدًا مركزيًّا للحياةِ الإنسانيةِ على المستويين

الشخصيِّ والاجتماعيِّ، وتوسد دورًا عامًّا، وساهم في كلِّ الحواراتِ المحوريةِ المعاصرةِ.

وتتَّضِحُ جليًّا المهامُّ الحاسمةُ التي يلعبها الدينُ في المجالاتِ الأربعةِ التاليةِ التي تتمثل في التعايشِ والوجودِ الإنسانيِّ:

أ- يرتبط الدين ارتباطًا قويًّا بمخاوف الإنسانيةِ، ويقدم حلولًا للاستفسارات الوجودية المهمَّةِ، مع إعطاء الحياة قيمةً ومعنًى، كما يفتح الدين أمام الإنسانية آفاقَ الخلود وأعماقَ الحقيقة.

ب- ترتبط الأديان بهُوِيَّةِ الشعوبِ وحضاراتِهم، ومن ثَمَّ فإن معرفةَ أديان الآخرين ومعتقداتِهم لا غِنَى عنه في فهم الآخرِ وتأسيس حوارٍ معه.

ج- أنشأت الأديانُ أعظمَ الإنجازات الحضارية للبشريَّةِ والقيم الأخلاقية الجوهريةِ؛ من التضامن والرحمة، فضلًا عنِ احترام كل الخلائقِ، وحافظت على هذه المُنجَزاتِ.

د- تُعَدُّ الأديانُ عنصرًا جوهريًّا في عملية السلامِ؛ كما كتب القديس بولس في الرسالة الأولى للكورنثيين: «لأَنَّ اللهَ لَيْسَ إِلهَ تَشْوِيشٍ بَلْ إِلهَ سَلاَمٍ» (الرسالة الأولى للكورنثيين، ١٤: ٣٣)؛ وإذا كان من الممكن أن تؤديَ الأديان للتفرقة بإثارة التعصب والعنفِ، فهذا بعيدٌ عن جوهرها المكينِ، وهو حماية كرامة الإنسانِ.

من المؤسف أن يُعرَفَ عالَمُنا المعاصرُ بالنسبية المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالعَلمانية أو الأصولية التي يراها الكثيرُ ردَّ فعلٍ للنسبيةِ؛ ويرى الأصوليون أنفسَهم في موضع تهديد أو اضطهاد من النسبيِّين.

وبينما يُنكر أهل النسبية وجودَ الحقيقةِ، يعتبر الأصوليون حقيقتَهم الخاصةَ بهم فذَّةً لا مثيلَ لها، ومن ثَمَّ يجب فرضُها على الآخرين، مما يجعل من المستحيل على الأديان أن تصبح جسرًا يصل بين البشرِ.

وفي العصر الحديثِ، حوَّلت ظاهرةُ القومية وحِقبةُ ما بعد الاستعمار التطرفَ الدينيَّ والأصوليةَ إلى مجرد أيدولوجية بسيطة تُستخدَمُ لأغراضٍ سياسيةٍ.

ومما يدعو للأسى أن انفجارَ الأصولية الدينية واندلاعَ أعمال العنف المُريعةِ التي تُرتَكَبُ باسم الدين يَدعَمُ جدلياتِ النقد الحديث ضدَّ الإيمانِ، ويؤيد تعريف الدين بجوانبه السلبيةِ؛ والحقيقةُ أن العنف هو نقضُ المعتقدات والعقائد الدينية الأصوليةِ، فالدينُ الصحيحُ لا يَعفي البشر من كونهم مسئولين عن العالَمِ، واحترامِ الكرامة الإنسانيةِ، والعملِ بُغيةَ تحقيق العدل والسلامِ، بل يقوِّي الالتزامَ بالعمل الإنسانيِّ، ويوسِّع مدى الحرية والقيم الإنسانية الأساسيةِ.

شهدت منطقةُ البحر المتوسِّطِ في الماضي تعايشًا سلميًّا بين اليهود والمسيحيين والمسلمين لعُقودٍ عديدةٍ، وتوضِّح هذه التجرِبةُ أنه باستطاعة الناس من مُختلِفِ الأديان العيشَ سويًّا، تحقيقًا للرسالة الأساسية للبشريةِ، والتي بدورها توحِّد بينهم، بدلا من كونها سببًا لانقسامهم، وهي تبيِّن قدرة الأديان على بناء الجسور

بين الناسِ، باعتبارها وسائلَ للسلام والتفاهم المتبادلِ، والتسامح بين البشرِ، والحوار بين الأديانِ.

ولهذا يُقِرُّ الحوارُ بين الأديان وجودَ الاختلافاتِ في الشعائر الدينيةِ، ويعمل على تعزيز التعايش السلميِّ، والتعاون بين الناس والثقافاتِ، ولا يَعني الحوار بين الأديان إنكارَ الإيمان الشخصيِّ، بقدر ما يَعني تغييرَ عقلية الفرد أو موقفه تجاه الآخَرِ، ومن ثَمَّ؛ فإنه يُخلِّصُ المرء من الأحكامِ المُسبَّقةِ ويحرِّره منها، ويُسهِمُ في التفاهم المتبادل والحل السلمي للصراعاتِ، إذ تَنبُعُ التحيُّزات والإجحافات من تحريف الدِّين وسوء تمثيله.

ونودُّ بحقيقة وجودنا اليومَ في هذا المؤتمر المهمِّ أن نعارض تحيُّزًا واحدًا على الأقل، ألا وهو: «إن الإسلام ليس مساويًا للإرهابِ؛ فالإرهابُ غريبٌ على أيِّ دينٍ»، وهذا هو السببُ في أن الحوارَ بين الأديان يُمكن أن يبدِّد الخوف والشكَّ، إنه لأمر محوريٌّ ومركزيٌّ للسلامِ، ولكن فقط بوجود رُوحِ الثقة والاحترام المتبادَلِ.

شرُفنا في يونيو الماضي برئاسة المجمع الكبير والمقدس للكنيسة الأرثوذكسية في جميع أنحاء العالَمِ، والذي اجتمع في جزيرة كريت باليونان، ومن بين عدة قضايا، رفض المجلسُ وأدان الأصوليةَ، وشدَّدَ بيانُه البابوي على أسفه لِما نشاهد اليومَ من زيادة في العنف الذي يُرتَكبُ باسم اللهِ؛ إذ تهدِّد التفجيرات الأصولية الحادثة داخلَ الطوائف الدينية بخلق وجهة النظر القائلةِ بأن الأصولية تنتمي إلى جوهر ظاهرة الدينِ، ولكن الحقيقة هي أن الأصولية نوع من الغيرةِ: «لهم غيرة للهِ،

ولكن ليس حسَبَ المعرفةِ» (رسالة بولس لأهل رومية، ١٠: ٢)، بل هي تعبيرٌ عن التدين المرضيِّ.

وعلاوة على ذلك، أكَّد المجلس أن الحوار الصادق بين الأديان يُسهِمُ في تنمية الثقة المتبادلةِ، وفي تعزيز السلام والمصالحةِ؛ ولن يتحقق السلام الحقيقي بقوة السلاحِ، ولكن من خلال المحبة التي «لا تطلبُ ما لنفسِها» (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، ١٣: ٥)؛ «يجب أن يُستخدَمَ زيتُ الإيمان لتهدئة وشفاء جراحِ الآخرين، وليس لإحياء حرائق جديدة من الكراهيةِ» (الرسالة البابوية، رقم ١٧).

تتوقف مصداقيةُ الأديان اليومَ على موقفها من حماية حرية الإنسان وكرامتِه، وإسهامِها في تحقيق السلامِ، وهذا هو الشرط اللازم لا لتحقيق التعايش السلمي وحدَه، بل لبقاء البشرية نفسِها؛ ولن يُمكِنَنا مواجهةُ هذه التحديات إلا إذا اتحدنا سويًّا.

لا يتسنَّى لأحدٍ -سواءٌ أمَّةٌ أو دولةٌ أو دينٌ أو علمٌ أو تكنولوجيا- مواجهةُ المشاكل الحالية وحدَه، فنحن بحاجة إلى بعضنا البعضِ، كما نحن بحاجة إلى تعبئةٍ عامَّةٍ، وجهود مُشتركةٍ، وأهدافٍ مشتركةٍ، ورُوحٍ مشتركةٍ؛ ولذلك فإننا نعتبر الأزمة الحالية على تعدُّد أَوجُهِها فرصةً لتحقيق التضامن والحوار والتعاون لبناء الانفتاح والثقةِ.

أمامنا مستقبلٌ مشتركٌ، والطريق نحو هذا المستقبل رحلةٌ مشتركةٌ، وذلك تصديقًا لما ورد في المزامير: «هو ذا ما أحسنَ وما أجملَ أن يَسكُنَ الإخوةُ معًا!» (المزامير ١٣٣:١).

فضيلةَ الإمامِ الأكبرِ.

السادةُ الحضورُ.

إننا نعتقد يقينًا حتميةَ مساهمةِ الأديان في عملية مَساعي بناء السلامِ على وجه الأرضِ، فلِلدِّينِ أهمية عظيمة، ولا يقتصر السلام العالَميُّ على غياب الحربِ، لكنه يرتكز على وجود الحرية والعدالة والتكافلِ.

إن ما نحتاجُه من الدين هو هدايةُ الناس إلى عُمق هذه الحقيقةِ، وإلى إحداث تغيير في العقل والحياة وصولًا للتفاهم المشتركِ، وهذا في حقيقة الأمر نواةُ شعائرنا الدينيةِ؛ ولأجل هذا السبب فإن البشريةَ تتوقع منا أكثرَ مما نقدِّمُه على أرض الواقعِ، وأكبر تحدٍّ تواجهُه الأديانُ: تعزيزُ قُدرتِها على المحبة والتكافل والعطفِ، وهذا جُلُّ ما ترجُوهُ الإنسانيةُ اليومَ من الأديانِ.

شكرًا لحُسنِ استماعِكم!